الدولة السعودية بعد الإمام
فيصل بن تركي

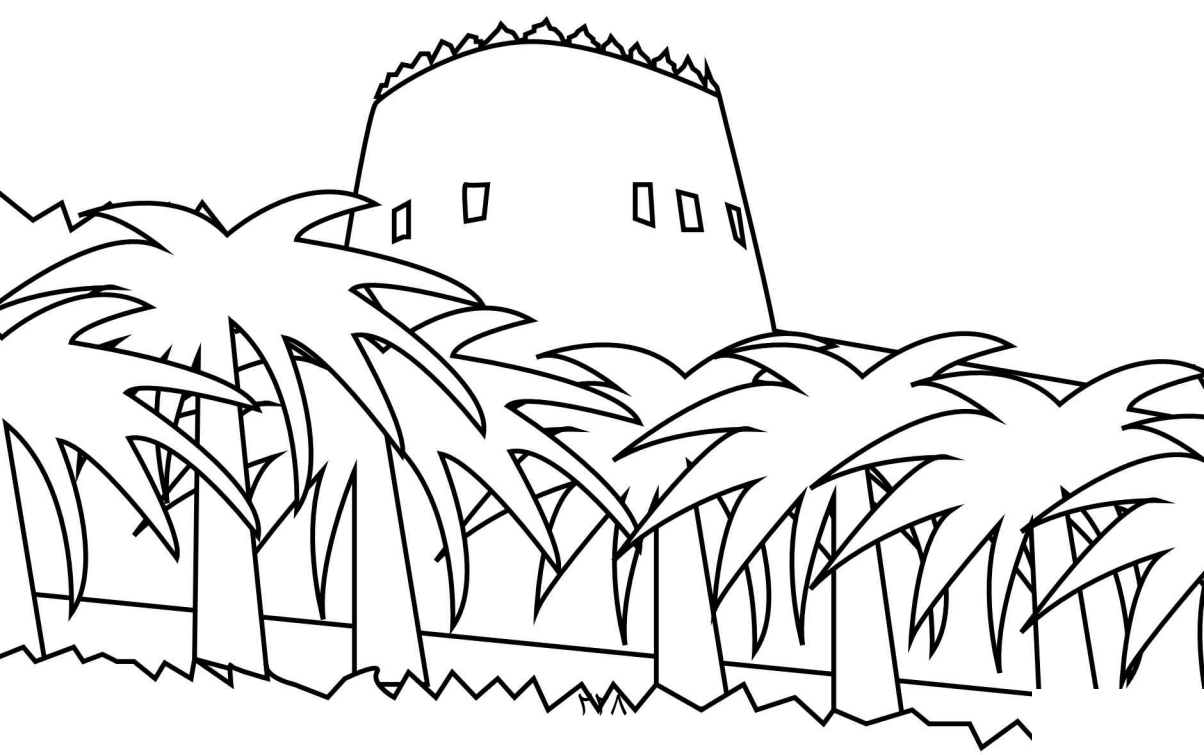

١ - النزاع على الحكم وانحسار الدولة:

في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٨٢هـ توفي الإمام فيصل بن تركي[١]. وكان قد فقد بصره، أو كاد يفقده، في أواخر عمره، فأسند كثيرًا من أعباء الدولة إلى ابنه الأكبر عبدالله[٢]. وبعد وفاته بويع عبدالله بن فيصل بالإمامة. وممن بايعه بها أخوه سعود[٣]. غير أنه لم يمض عام واحد على تَولِّيه الإمامة إلا وقد خرج عليه ذلك الأخ ينازعه الحكم. وتختلف الروايات في سبب ذلك[٤]. لكن من المرجح أن الطموح إلى تَولِّي السلطة كان من أكبر العوامل التي دفعت سعودًا إلى الخروج على عبدالله.

وكان كثير من الحاضرة؛ وبخاصة علماء الدين، يقفون إلى جانب عبدالله بن فيصل ويُؤيِّدونه، لأنه الوارث الشرعي للإمامة سِنًّا وعهدًا. وكانت له خبرة في إدارة شؤون الدولة، وفي قيادة الجيوش. وقد وقف معه أخوه محمد، الذي سبق أن قاد بعض الغزوات في عهد أبيه. وكل ما ذكر بدا مرجحًا لكفة عبدالله في منافسة أخيه سعود له. وكان هذا الأخير يدرك ذلك تمام الإدراك، لكنه كان، فيما يبدو، قد أخذ عدة عوامل بعين الاعتبار. ومن هذه العوامل أن ضربات عبدالله

---

(١) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٤٩.

(٢) وايندر، ص٢٢٨، الذكير، ص٨٦.

(٣) انظر رسالة الشيخ عبداللطيف، **الدرر السنية**، ج٧، ص٢٤٢، ورسالة ابنه الشيخ عبداللطيف، المصدر نفسه، ج٧، ص٢٤٤.

(٤) هنالك من يقول: إن عبدالله اضطهد سعودًا، ومنع الناس من الاتصال به مما دفعه إلى الثورة. انظر الذكير، ص٨٦. وقد ذكر سعود في رسالة إلى الشيخ حمد بن عتيق أمورًا متعددة جعلته يثور على أخيه عبدالله، ورد عليها الشيخ حمد بما يفنِّدها. انظر **الدرر السنية**، ج٧، ص٢٥٨ - ٢٦٢ ولعلَّ إمارة سعود للخرج، التي كانت ناجحة وطويلة نسبيًّا، قد جعلته يعتاد حياة معيَّنة تفرض عليه التزامات ربما صعب على أخيه عبدالله توفيرها له. على أن سعودًا عزل عن تلك الإمارة في أواخر عهد أبيه. وربما كان عزله بقرار من أخيه، الذي تولَّى أعباء الحكم الثقيلة عن والده حينذاك، فأضمر سعود في نفسه على أخيه ما أضمر، وبايعه عن كره، كما ذكر في رسالته إلى ابن عتيق.

الموجعة لقبيلة العُجْمان كانت لا تزال حديثة العهد، مما جعل تلك القبيلة تُكنُّ له العداء وتَتحيَّن الفرص للانتقام منه. وكان بينها وبين سعود صلة رحم[1]. وهذا عامل إضافي يمكن أن يزيد من حماستها للوقوف معه ضد أخيه عبدالله. ومن المرجح أن إمارة سعود الطويلة نسبيًّا في جنوبي نجد خلال عهد أبيه قد نَمَّت النزعة في نفسه إلى السلطة، وجعلته يأمل في وقوف السكان هناك إلى جانبه[2].

خرج سعود بن فيصل من الرياض ثائرًا ضد أخيه الإمام عبدالله. ولعلمه بأن غالبية سكان نجد لن يقوموا معه اتَّجه إلى محمد بن عائض في عسير آملاً منه المساعدة. وما إن علم أخوه بسفره إلى أبها حتى بعث وفدًا إلى هناك ليستميله ويقنعه بالعودة إلى الرياض. وكان ابن عائض من المتعاطفين جدًّا مع الحكم السعودي القائم على أساس الدعوة الإصلاحية النجدية. وكان لذلك يكره أن يحدث انقسام داخلي يُؤثِّر على ذلك الحكم. فلم يكن غريبًا أن يمتنع عن تقديم أيِّ معونة عسكرية لسعود ضد أخيه عبدالله. بل حاول مع الوفد المرسل إليه أن يثنيه عن عزمه على محاربة الإمام الشرعي أخيه الأكبر. لكن المحاولات لم تنجح في إقناع سعود عن ترك ما صَمَّم عليه[3].

وحينما فشل سعود بن فيصل في الحصول على معونة عسكرية من محمد بن عائض تَوجَّه إلى نجران حيث رَحَّب به رئيسها وأَيَّده[4]. ولم يكن ذلك الموقف غير متوقع من الرئيس النجراني، فقد كان لا يتعاطف مع الحكم السعودي

---

(١) وايندر، ص٢٣٠.

(٢) كان سعود قد تولَّى إمارة منطقة الخرج سنة ١٢٦٣هـ. انظر ابن بشر، ج٢، ص١٥٢. ومع أن الشيخ ابن عتيق قد أشار إلى أنه قد عُزل عن الإمارة في حياة أبيه، كما سبق أن ذكر، فإنه لم يحدد تاريخ ذلك العزل.

(٣) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٥٢.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

القائم على أساس العقيدة السُّنيَّة التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ولَعلَّه رأى أن تشجيع الانقسامات داخل الأسرة السعودية مما يضعف ذلك الحكم. وكانت قبائل نجران يامية الأصل، وهي لهذا تَمتُّ بصلة القرابة لقبيلة العُجْمان اليامية التي كانت علاقتها بعبدالله بن فيصل سيئة.

ثم وفدت إلى سعود بن فيصل وهو في نجران فئات من بعض القبائل؛ مثل العُجْمان وآل مُرَّة وآل شامر، فَتكوَّنت لديه قوة شَجَّعته على أن يسير بها لمحاربة أخيه عبدالله. وانطلق من نجران إلى وادي الدواسر حيث لقيت حركته الكثير من النجاح، وازداد عدد المنضمِّين إليه. وكان أخوه عبدالله على علم بتحرُّكاته. فجَهَّز جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه محمد للوقوف في وجه تَقدُّم سعود. وتقابل الأخوان محمد وسعود بجيشيهما في المُعْتَلَى. فهُزِمَ سعود وجُرِحَ في المعركة، وقُتِلَ كثير من أتباعه؛ وذلك سنة ١٢٨٣هـ[١]. ثم سار سعود بعد هزيمته في المعتلى إلى مواطن آل مُرَّة، وظَلَّ عندهم حتى برئت جراحه، وبعد ذلك تَوجَّه إلى جهات عمان[٢]. ولم يكن مسيره إلى هناك، فيما يبدو، محض الصدفة؛ وإنما كان نتيجة دراسته لأوضاع تلك الجهات. ذلك أن القوى المحيطة بها؛ مثل سلطان مسقط وبريطانيا، لم تكن ذات مَودَّة لأخيه عبدالله.

أما عبدالله بن فيصل فإن النصر الذي حَقَّقه له أخوه محمد في المُعْتَلى أغراه باتِّخاذ إجراءات صارمة ضد من تعاون مع أخيه سعود. فأرسل، سنة ١٢٨٤هـ، عمه عبدالله بن تركي بقوات إلى الأحساء، وأمره أن يحبس من ظفر به من بادية العُجْمان، وأن يحرق بيوتهم. واستدعى أمير تلك المنطقة محمد بن أحمد السديري إلى الرياض، فعزله عن الإمارة، وعَيَّن بدلًا منه

(١) الفاخري، ص٨٨ - ١٨٩، المؤرخ البسام، ورقة ١٤٩ب؛ ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٥٢ - ٥٣.

(٢) الذكير، ص٨٦؛ ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٥٣.

ناصر بن جبر الخالدي[١]. وربما كان سبب ذلك العزل أن أخا محمد، تركي بن أحمد، أمير جهات عمان قد آوى سعود بن فيصل[٢]، وأن الإمام عبدالله خشي من اتِّفاق الأخوين في المنطقة الشرقية وجهات عمان على العمل ضده. ومهما كان السبب فإن عزل السديري، الذي كان محبوبًا لدى السكان، كان عامل ضعف في مركز الإمام عبدالله هناك. وفي عام ١٢٨٥هـ قاد هذا الإمام قوات إلى وادي الدواسر، واتَّخذ ضد أهله عقوبات اقتصادية[٣].

مكث سعود بن فيصل في جهات عمان حتى اغتيل الأمير تركي بن أحمد السديري سنة ١٢٨٥هـ. فلجأ إلى عَزَّان بن قيس عَدوِّ أخيه عبدالله في تلك الجهات[٤]. وكانت بريطانيا، بما لها من نفوذ في البحرين حينذاك، تكره الإمام عبدالله، ومن ثم تتعاطف مع أخيه سعود. فرأى هذا أن تلك البلاد أنسب له للاتِّصال بالقبائل المناصرة له في شرقي الجزيرة العربية؛ مثل آل مُرَّة والعَجْمان، فذهب إلى هناك حيث رحب به عيسى بن خليفة. وقد وفد إليه عدد من أنصاره. وبدأ يستعد لاستئناف نشاطه العسكري[٥].

وكانت أَوَّل خطوة قام بها سعود بن فيصل من البحرين مهاجمة المناطق التابعة لأخيه عبدالله في قطر. لكن عبدالله كان قد بعث سَرِيَّة إلى هناك تَحسُّبًا لأَيِّ طارئ. فاستطاع أتباعه أن يصدوا هجوم سعود ومن معه. فعاد المهاجمون من حيث أتوا[٦].

---

(١) المصدر الأخير، الصفحة ذاتها.

(٢) نخلة، ص١٤٠.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٥٤.

(٤) نخلة، ص١٤٠.

(٥) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٦٤. وذكر هذا المؤلف أن من بين الذين وفدوا إلى سعود في البحرين محمد بن عبدالله بن ثنيَّان.

(٦) المصدر نفسه، ص٦٤ - ٦٥، وقد قتل في الهجوم محمد بن ثنيَّان.

ومع أن هزيمة سعود بن فيصل في قطر كانت صدمة أخرى له إلا أنه لم ييأس. بل واصل نشاطه واتصالاته بأنصاره في المنطقة الشرقية. وحينما اقتنع بقدرته على معاودة الهجوم اتَّجه من البحرين إلى العُقَير، فاستولى عليها. وانضمت إليه فئات من قبائل المنطقة، فَتوجَّه إلى الهفوف مقر أميرها من قِبَل أخيه عبدالله. وقد أغرى زعماء العُجْمان ذلك الأمير بالخروج لمقاتلة سعود، فخرج لمقاتلته. وحينما اقترب منه انقلب أولئك الزعماء ضده، وانضمُّوا إلى سعود ومن معه. وعاد أمير عبدالله منهزمًا إلى الهفوف. وطَوَّقه سعود بقواته حتى ضَيَّق عليه الحصار[1].

وما إن علم عبدالله بن فيصل بأخبار المنطقة الشرقية حتى جَهَّز جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه محمد، وأرسله لمقاومة سعود. وعلم سعود باتِّجاه ذلك الجيش إليه، فرأى أن يرفع الحصار عن الهفوف ويقابله قبل أن يصل إلى بلدان الأحساء. وتقابل الأخوان، محمد وسعود، بجيشيهما في جُوْدة سنة ١٢٨٧هـ. وفي أثناء المعركة انضمَّت فئات من قبيلة سُبَيع، التي كانت مع محمد، إلى سعود[2]. فَدبَّت الفوضى في جيش محمد، وانتصر أخوه سعود عليه. وقد تَمكَّن المنتصر من أسر أخيه، وأخذه معه سجينًا. ثم عاد سعود بعد انتصاره في جودة ليستولي على بلدان المنطقة الشرقية دون صعوبة. وبذلك خرجت تلك المنطقة المُهمَّة عن حكم عبدالله بن فيصل[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٥ - ٦٦، آل عبدالقادر، ج١، ص١٦٨ - ١٦٩.

(٢) الفاخري، ص١٩١؛ ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٦٦. ويقال: إن سبب انقلاب تلك الفئات من سبيع على محمد أن عبدالله بن فيصل لم يقبل شفاعة أحد زعمائها لواحد من رؤساء العجمان سنة ١٢٨٦هـ. انظر سعود بن هذلول، **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض، ١٣٨٠هـ، ص٣٢، وقد كان لزعيم العجمان، راكان بن حثلين، جهد في إغراء زعيم سبيع في الانضمام إلى سعود، انظر آل عبدالقادر، ج١، ص١٦٩.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٦٦ - ٦٧.

ومن الواضح أنه كان لهزيمة جيش عبدالله بن فيصل في جُوْدة، واستيلاء أخيه سعود على المنطقة الشرقية، أثر كبير في نفسه، ذلك أنه جمع ثروته وغادر الرياض مُتَّجهًا إلى جبل شَمَّر.

وفي طريقه إلى هناك اتَّصل بأمير عُنَيزة، زامل بن سُلَيم، محاولًا أن يكسبه إلى جانبه. لكن ذلك الأمير لم يشأ أن يَتدخَّل في نزاع الأخوين حينذاك[1]. ويبدو أيضًا أن عبدالله لم يَتلقَّ من زعماء جبل شَمَّر ما يُشجِّعه على مواصلة سيره إلى هناك. فرأى أن يستنجد بوالي بغداد، مدحت باشا، ليساعده في تلك الآونة الحرجة[2]. ولَعلَّ من أسباب تَوجُّهه إلى ذلك الوالي العثماني محاولة الاستفادة من التنافس بين الدولة العثمانية وبريطانيا، التي كانت قد أَيَّدت أخاه سعودًا. وكان والي بغداد نشيطًا ومُتطلِّعًا إلى توسيع مناطق نفوذه. وما إن وصله مندوب عبدالله، عبدالعزيز أبو بطين، حتى أبدى استعداده لنجدته[3].

وفي أثناء ذلك وفد محمد بن هادي بن قَرْملة، رئيس قبيلة قحطان، على سعود بن فيصل في الأحساء، فلم يستقبله الاستقبال الذي كان يَتوقَّعه[4]. ومن الواضح أن السبب في ذلك ما كان يوجد من خلاف بين قبيلة قحطان وقبيلة العُجْمان عماد قوة سعود؛ إذ خشي هذا الأخير أن يكون إكرامه لابن هادي داعيًا لغضب ابن حِثْلين. فَقرَّر زعيم قحطان أن يَنضمَّ إلى صف عبدالله بن فيصل، وشَجَّعه على العودة إلى الرياض، فعاد إليها. وكان سعود قد بدأ سيره في اتِّجاه

---

(١) وايندر، ص٢٥٠. وكان زامل قد أصبح أميرًا لعنيزة بعد وفاة عبدالله بن يحيى سنة ١٢٨٥هـ. ابن عيسى، **عقد الدرر**، ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٧. وقد لقيت هذه الخطوة انتقادًا من علماء الدين. انظر **الدرر السنية**، ج٧، ص٢٤٥.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٦٧.

(٤) كان محمد بن هادي فارسًا مغوارًا، وشاعرًا مجيدًا. وقد بلغت قحطان برئاسته شأوًا بعيدًا؛ إذ احتلت مكان الصدارة بين القبائل في نجد.

هذه المدينة إلا أنه لما علم بعودة أخيه عبدالله إليها رجع إلى الأحساء ليزيد من استعداداته. ثم زحف من هناك مرة أخرى. وما إن اقترب من الرياض حتى غادرها عبدالله إلى مضارب قحطان، حيث بقي ينتظر ما تسفر عنه حوادث الأيام. فدخل سعود بن فيصل تلك المدينة، وأخذ البيعة من سكانها. وقام أتباعه من البادية بأعمال نهب وتخريب، عانى منها أولئك السكان الشيء الكثير. وذلك سنة ١٢٨٨هـ[١].

ولما استقر سعود بن فيصل في الرياض جَهَّز قوات، واتَّجه بها لمحاربة أخيه عبدالله. ودارت بينهما معركة في البَرَّة[٢]. فانهزم عبدالله ومن منعه من قحطان. وعاد سعود بعد انتصاره إلى الرياض[٣].

وبينما كانت تلك الحوادث تجري جَهَّز والي بغداد جيشًا بقيادة نافذ باشا، وسَيَّره إلى شرقي الجزيرة العربية. وقد انضم إلى هذا الجيش جيش آخر من الكويت بقيادة عبدالله بن صباح وأخيه مبارك. وحين وصل الجميع إلى منطقة الأحساء هاجموا مراكز سعود بن فيصل، واستطاعوا أن يستولوا عليها. وأخرج نافذ باشا محمد بن فيصل من سجنه. وبعث إلى أخيه عبدالله يستقدمه إليه. ففعل عبدالله ما طلب منه القائد العثماني[٤].

وكان خروج المنطقة الشرقية من حكم سعود بن فيصل من الأمور التي شَجَّعت الموالين لأخيه في الرياض على الثورة ضده. فقام عليه عمه

---

(١) الدرر السنية، ج٧، ص٢٥٢ - ٢٤٣؛ ابن عيسى، عقد الدرر، ص٦٩.

(٢) البرَّة: قرية قريبة من ضرماء. انظر عنها عبدالله بن خميس، **معجم اليمامة**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠٠هـ، ج١، ص١٥٧ - ١٥٩.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٦٩ - ٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٠ - ٧١؛ نخلة ص١٦١ - ١٦٢. وهو من أحسن المصادر التي تناولت هذه الحملة.

عبدالله بن تركي، واضطره إلى مغادرتها[1]. وسار سعود من الرياض إلى الدِّلَم. ثم اتَّجه من هناك إلى الأحساء، وبدأ يقاوم الجيش العثماني فيها. لكنه فشل في مسعاه العسكري. فرأى أن يلجأ إلى الطرق السلمية، وأرسل أخاه عبدالرحمن إلى بغداد للتفاوض مع واليها. لكن ذلك الوالي، الذي لم يبعث جيشه إلا للاستيلاء على شرقي الجزيرة العربية، لم يبد أَيَّ استعداد للتفاوض حول سحب قواته من هناك؛ بل أبقى عبدالرحمن رهينة لديه[2].

على أن عبدالله بن فيصل لم يبق طويلًا في الأحساء. ذلك أنه أُنذِر بأن قائد القوات العثمانية فيها يُخطِّط لتسفيره إلى بغداد[3]. ويبدو أن الإنذار جاء في الوقت المناسب، وهو انتزاع عمه عبدالله ابن تركي حكم الرياض من أخيه سعود، كما سبق أن ذكر. فَدبَّر عبدالله حيلة هرب بها من المنطقة الشرقية مع أخيه محمد وابنه تركي. وحينما وصل إلى الرياض سَلَّمه عمه عبدالله مقاليد الأمور فيها[4].

أما سعود بن فيصل فبعد أن يئس من نجاح المفاوضات مع والي بغداد خَفَّ بمن تبعه من العُجْمان وغيرهم، واتَّجه إلى الأفلاج حيث انضم إليه بعض سكان جنوبي نجد. وما إن علم أخوه عبدالله، بِتحرُّكاته حتى بعث جيشًا بقيادة أخيه محمد، ومعه عمه عبدالله إلى الدِّلَم. وحينما حاصر سعود أخاه محمدًا ومن معه في تلك البلدة انقلب سكانها معه. فهرب محمد عائدًا إلى الرياض،

---

(١) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٧١.

(٢) واينـدر، ص٢٥٩. وكان مع عبدالرحمن فهد بن صنيتان. وصنيتان لقب لعبدالله بن إبراهيم، أخي الإمام تركي.

(٣) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٧٢.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها، ابن هذلول، ص٢٧ - ٣٨.

ووقع عمه عبدالله أسيرًا في يد سعود. وسجنه هذا الأخير حتى مات في سجنه بعد أيام قليلة. ثم واصل سعود زحفه حتى وصل إلى أطراف الرياض، حيث تقابل مع أخيه عبدالله في الجِزْعَة، وهزمه[1]. ودخل سعود العاصمة بينما ذهب عبدالله إلى المناطق القريبة من الكويت مع بادية قحطان. وذلك سنة ١٢٩٠هـ[2].

وبعد أن استقر سعود بن فيصل في الرياض، وأمضى حوالي شهرين فيها، خرج بأتباعه ومن انضم إليه من حاضرة نجد وباديتها، وقصد مسلط بن رُبَيعان وقومه من عُتَيبة[3]. ولكنه حينما التقى بالعتبان في طلال هزموه، وقتلوا كثيرًا ممن كانوا معه[4].

وفي عام ١٢٩١هـ استطاع عبدالرحمن بن فيصل مغادرة العراق، ووصل إلى البحرين، وتشير بعض المصادر إلى أن ذلك قد تَمَّ نتيجة لمساع بريطانية لدى السلطات العثمانية، ثم اتَّجه عبدالرحمن من البحرين إلى العُقَير، حيث انضم إليه كثير من المؤيِّدين. وزحف بهؤلاء على الهفوف، فتعاون معه أهلها، وقاموا على الحامية العثمانية فيها، فقتلوا عددًا من رجالها، وحاصروا الباقين منهم في الكُوْت. لكن إمدادات جديدة قدمت من العراق بقيادة رئيس قبيلة المنتفق،

---

(١) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٧٢؛ ابن هذلول، ص٣٨.

(٢) الجِزْعة: قرب المصانع الواقعة جنوب منفوحة.

(٣) مسلط بن ربيعان رئيس الرُّوقة من قبيلة عُتَيبة. أما رؤساء برقا، القسم الآخر من هذه القبيلة، فآل حُمَيد. وقد برز منهم أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الذي تلاه محمد بن هندي الذي كان من أعظم رجال زمانه دهاء وشجاعة.

(٤) طلال: مورد ماء في عالية نجد. ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص١٨٥ هامش ٢، ولمزيد من التفصيلات عن معركة طلال. انظر: عقد الدرر، ص٧٥ – ٧٦؛ ابن هذلول، ص٤٠ – ٤١. وقد خلدت هذه المعركة، وأوردت تفاصيلها، قصيدة شليويح العطاوي، أحد فرسان الروقة المشهورين، والتي مطلعها:

مبدا كلامي طلبتي ذكر الله ولالي عن الرب الكريم غناوي

وهي موجودة في كتاب الحاتم، ج٢، ص٢٢٥ – ٢٥٦.

وهزمت عبدالرحمن بن فيصل ومن معه. فترك الأحساء، وتَوجَّه إلى الرياض. لكنه ما إن وصل إلى هذه المدينة حتى توفي أخوه سعود، فَحلَّ مَحلَّه في الحكم[1].

ورغم الهزائم التي حَلَّت بعبدالله بن فيصل فإنه لم ييأس. وربما كان لانتصار ابن ربيعان على أخيه سعود في طلال، ثم لوفاة سعود، أثر في تشجعه على استئناف محاولاته لاستعادة الحكم. فبعث أخاه محمدًا بمن انضم إليه من عُتَيبة ليستولي على الوَشْم. وأسرع أخوه عبدالرحمن بقواته لِيصدَّه عنها، وتَمكَّن من هزيمته. لكن عبدالرحمن ذهب بعد ذلك إلى الدوادمي لقتال مسلط بن ربيعان وقومه. ومن سوء حظه أنه لم يجد ابن ربيعان وقومه وحدهم، وإنما وجد معهم فئات أخرى من عُتَيبة بقيادة ابن حميد، وهَذَّال الشيباني. فانتصروا عليه، وعاد إلى الرياض، وذلك سنة ١٢٩٢هـ[2].

وفي عام ١٢٩٣هـ قامت مشكلة بين عبدالرحمن بن فيصل وأبناء أخيه سعود، سببها مقتل فهد بن صنيتان آل سعود، المقرَّب من عبدالرحمن[3]. وكان موقف عبدالله بن فيصل قد تَحسَّن كثيرًا بعد انضمام قبيلة عُتَيبة إلى جانبه. فاتَّجه بأتباعه إلى الرياض لانتزاع الحكم من أخيه عبدالرحمن. وكان لضعف موقف هذا الأخير داخليًّا، وللجهود التي بذلها الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن، أثر كبير في إقناعه بأن يخرج إلى أخيه عبدالله، ويتنازل له عن الإمامة. ومن

(١) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص ٧٧ - ٧٨ و٨٠؛ المؤرخ البسام، ورقة ١٥٤أ وعن مساعي بريطانيا لدى العثمانيين للسماح لعبدالرحمن بن فيصل بمغادرة العراق. انظر: نخلة، ص١٩٤. وكانت وفاة سعود في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ. وعن ظروف تولِّي عبدالرحمن الحكم. انظر: الدرر السنية، ج٧، ص٢٥٣.

(٢) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٨٠ - ٨١.

(٣) بينما يذكر ابن عيسى (المصدر نفسه: ٨٣) أن ابن صنيتان قتله محمد بن سعود بن فيصل يقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن، المعاصر للحادثة: إن الذي قتله ابن جلوي؛ أي من ذرية جلوي بن تركي، لا من ذرية فيصل. انظر: الدرر السنية، ج٧، ص٢٥٤.

الواضح أن أبناء سعود بن فيصل لم يرضوا بما تَمَّ بين عَمِّيهما من صلح. ولذلك غادروا الرياض إلى الدِّلم[1].

وعلى أَيِّ حال فإنه بالرغم من استعادة عبدالله بن فيصل للحكم، إلا أن نفوذه لم يتجاوز من الناحية الواقعية بلدان العارض والبلدان القريبة منها. ومنذ تَولِّيه الحكم، بتنازل من أخيه عبدالرحمن عنه، ونفوذه يزداد ضعفًا يومًا بعد آخر أمام ازدياد قوة منافس نجدي جديد هو محمد ابن عبدالله بن رشيد. ولَعلَّه من المستحسن إعطاء لمحة موجزة عن أسرة هذا الأمير قبل تَولِّيه الإمارة.

٢- آل رشيد قبل حكم محمد بن عبدالله:

ينتمي آل رشيد إلى آل جعفر أحد بطون عَبْدة من قبيلة شَمَّر. والمعلومات التاريخية عن هذه الأسرة قبل نشاط مؤسس الإمارة فيها، عبدالله بن علي بن رشيد، قليلة جدًّا. ومما ذكرته المصادر عن أبي ذلك المؤسس أنه كان ورعًا متدينًا، وأنه كان جابيًا للزكاة من بادية شَمَّر في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز. وكان أخو علي، جَبْر بن رشيد، أَحد كُتَّاب ذلك الإمام وموضع ثقته[2].

وكان ابنا علي بن رشيد، عبدالله وعُبَيد، نشيطين منذ فترة شبابهما المبكر. ومن نشاطهما مرافقة القوافل المارة بجبل شَمَّر المتجهة إلى العراق أو القادمة منها إلى الحجاز عبر ذلك الجبل. وقد تَزَّوج عبدالله ابنة أمير جبل شَمَّر، محمد بن عبدالمحسن بن علي، الذي يلتقي معه من حيث النسب بآل جعفر، والذي كان من أشهر قادة الدولة السعودية الأولى. لكن خلافًا وقع بين

(١) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٨٣ - ٨٤.

(٢) انظر عن تفصيلات ذلك: العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد**، ص٦٧ - ٧١.

عبدالله ابن رشيد وأخيه عُبَيد وبين الأمير صالح بن عبدالمحسن بن علي، الذي تَولَّى إمارة جبل شَمَّر بعد مقتل أخيه محمد بأيدي رجال إبراهيم باشا سنة ١٢٣٤هـ. ولَعلَّ من أهم أسباب ذلك الخلاف ما كان يوجد لدى هذين الشابين من طموح، دفعهما إلى التدخُّل في أمور يَعدُّها الأمير صالح من صميم اختصاصاته.

وقد أَدَّى الخلاف بين الأمير صالح بن عبدالمحسن وعبدالله بن رشيد وأخيه عبيد إلى نفيهما من حائل. وبعد إخراجهما من هذه البلدة اختفيا مدة في أحد الأمكنة القريبة منها. وكانا يَتسلَّلان، أحيانًا، إليها لزيارة أقاربهما وأصدقائهما. وقد أمر الأمير صالح واحدًا من عبيده بالقبض على عبدالله. لكن هذا الأخير احتال به، وقتله. فازداد غضب الأمير عليه وعلى أخيه عُبَيد، وأخرج أُمَّهما من حائل أيضًا[١].

وقد ذهب عبدالله بن رشيد بعد ذلك إلى العراق، بينما بقي أخوه عُبَيد مع أسرتهما مختفيًا قرب قاعدة جبل شَمَّر. وبعد إقامة عبدالله في العراق مدة تختلف المصادر في تحديدها وفي طبيعة نشاطه خلالها عاد إلى نجد، ووَفَد إلى الإمام تركي بن عبدالله آل سعود[٢]. وقد أصبح أحد أصدقاء ابنه فيصل المقرَّبين، وأحد قادته العسكريين. وكان مع فيصل في غزوته إلى جهة القطيف حينما بلغه خبر اغتيال أبيه الإمام تركي بمؤامرة دَبَّرها مشاري بن عبدالرحمن آل سعود. وقد قام عبدالله بجهد بارز في القضاء على مشاري تَخطيطًا وتَنفيذًا[٣].

وبعد أشهر من تَولِّي الإمام فيصل بن تركي الحكم عزل صالح بن عبدالمحسن بن علي عن إمارة جبل شَمَّر، وعَيَّن بدلاً منه

---

(١) المصدر، ص٩٠ - ٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٥ - ٩٩.

(٣) ابن بشر، ج٢، ص٦٥ - ٦٧.

عبدالله بن رشيد. وقد نتج عن ذلك خلاف شـــديد بين الأمير المعزول والأمير الجديد. وكانت نهاية ذلك الخلاف إخـــراج آل علي من حائل، ثم القضاء على صالح بن عبدالمحسن وأكثر أفراد أسرته[١].

ومع أن عبدالله بن رشيد فقد الإمارة عن طريق القوة التي بعثها إسماعيل بك وخالد بن سعود مع عيسى بن علي إلا أنه عاد إليها بعد فترة قصيرة بقوته الذاتية، ومباركة القائد خورشيد وتأييده، ولقد تَمكَّن من توطيد نفوذه في منطقة جبل شَمَّر والمناطق القريبة منها شمالاً خلال السنوات الواقعة بين فترتي حكم الإمام فيصل بن تركي الأولى والثانية. وكان من أبرز ما حَقَّقه من نجاح في تلك المدة انتصاره العظيم على أهل القصيم وحلفائهم من عنزة في معركة بَقْعاء سنة ١٢٥٧هـ[٢].

وحينما غادر الإمام فيصل بن تركي مصر، سنة ١٢٥٩هـ، قدم إلى عبدالله بن رشيد في حائل. فأكرمه. وسار تحت رايته حتى استولى على الرياض، وقبض على عبدالله بن ثُنيَّان. وظَلَّ صديقًا حميمًا للإمام فيصل، وزعيمًا تربطه به علاقة خاصة من ملامحها أنه كان مستقلًّا في غزواته شمالي الجزيرة العربية، وأنه كان يحتفظ بزكاة البلدان التابعة له إداريًّا أو بأكثر تلك الزكاة على الأَقلِّ[٣].

وبعدما توفي الأمير عبدالله بن رشيد، سنة ١٢٦٣هـ، خلفه في الإمارة ابنه الأكبر طلال، الذي وَسَّع حدود الإمارة بدرجة كبيرة. وكانت علاقته بالإمام فيصل بن تركي علاقة طيبة جدًّا. وظَلَّ محافظًا على تلك العلاقة الطيبة حتى

(١) العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد**، ص١١٥ - ١٣٤.

(٢) ابن بشر، ج٢، ص١١٧ - ١١٩؛ العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد**، ص٢٣١ - ٢٤٢.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص٢١٩ - ٢٣١. ومن مظاهر العلاقة الوطيدة بينهما أن عبدالله بن فيصل كان زوجًا لابنة عبدالله بن رشيد.

وفاة ذلك الإمام سنة ١٢٨٢هـ. وبعد حوالي عام من هذا التاريخ أصيب بمرض دفعه إلى الانتحار[١].

ولقد تَولَّى إمارة جبل شَمَّر بعد طلال بن عبدالله أخوه متعب. لكن عهده لم يدم إلا سنتين تقريبًا. ذلك أنه حدث خلاف بينه وبين ابني أخيه طلال، بندر وبدر. وحاول عمه عُبيد بن علي أن يصلح بينهما في بداية الأمر[٢]. لكن متعبًا، فيما يبدو، لم يتجاوب معه، ولَعلَّ فشل عُبَيد في الإصلاح بين الطرفين كان من بين الأسباب التي جعلته يغري الشابين أخيرًا بالقضاء على عَمِّهما متعب. وهكذا قاما بقتله، وتَولَّى الإمارة بندر[٣].

وكان محمد بن عبدالله بن رشيد حين مقتل أخيه متعب وافدًا على الإمام عبدالله بن فيصل في الرياض. فغضب غضبًا شديدًا على ما ارتكبه ابنا أخيه طلال. ولَعلَّ وجود عمه عُبَيد في حائل هو الذي جعله لا يَتوجَّه إلى هناك للثأر من الشابين القاتلين وانتزاع الإمارة. لكن عُبَيدًا توفي سنة ١٢٨٦هـ[٤]. وأَحسَّ الأمير بندر أن سلطته - وربما حياته - في خطر ما لم يصطلح مع عَمِّه محمد ابن عبدالله. فوفد إلى الإمام عبدالله بن فيصل. وأصلح الإمام بينه وبين عَمِّه على أن يَظلَّ بندر أميرًا لجبل شَمَّر، وأن يعود عَمُّه محمد إلى إمارة القوافل المارة بالجبل. وعاد هو وعَمُّه من الرياض إلى حائل مصطلحين[٥]. لكن محمدًا كان، على الأرجح، يضمر في نفسه ما يضمر من نوايا للتَّخلُّص من ابن أخيه وانتزاع الحكم منه.

---

(١) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٥٢.

(٢) ضاري الرشيد، ص١٨٣.

(٣) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٦٢ وهناك رواية شفهية متداولة بين أهل نجد تفيد أنه قد حدث مع وزير متعب ما أغضب عمه عبيدًا. فكان ذلك من أسباب غضبه على ابن أخيه؛ وبخاصة أنه لم يعزل ذلك الوزير.

(٤) هوبير: ص١٥٩، موزل، ص٢٤١.

(٥) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٦٣.

وفي عام ١٢٨٩هـ كانت علاقة الأمير بندر بن طلال بقبيلة الظفير سيئة. فمنع التعامل معها اقتصاديًّا. وقد جرت العادة أن يستأجر عَمُّه محمد إبلاً من القبائل لإحضار أطعمة من العراق حين عودته من هناك بعد مرافقته لقافلة الحج. وقد عمد إلى استئجار إبل من قبيلة الظفير ذات العلاقة السيئة مع ابن أخيه الأمير بندر. وحين اقترب من حائل خرج الأمير- كعادته- لاستقباله. فعلم منه أنه قد استأجر إبلاً من القبيلة المذكورة، وغضب غضبًا شديدًا، ودار بينه وبين عَمِّه جدل حاد حول هذا الموضوع، وكانت نهاية ذلك الجدل أن احتال محمد بابن أخيه بندر وقتله. ثم قتل بقية إخوانه إلا واحدًا[1].

وكان مجيء محمد بن عبدالله بن رشيد إلى الإمارة، سنة ١٢٨٩هـ، في وقت بلغ فيه الخلاف بين أبناء الإمام فيصل بن تركي ذروته. وهكذا تَهيَّأت الأسباب لذلك الأمير ليبدأ في تنفيذ ما كان يدور في ذهنه من طموح لحكم نجد على حساب أولئك المتنافسين عليه من آل سعود.

٣- نهاية الدولة السعودية:

كان أول احتكاك غير وُدِّي بين الإمام عبدالله بن فيصل والأمير محمد بن رشيد سنة ١٢٩٣هـ؛ وذلك حينما أغرى أمير عُنَيزة، زامل بن سُلَيم، الإمام بالوقوف مع آل عُليَّان- حكام بُرَيدة سابقًا- ضد خصومهم آل مُهنَّا أبي الخيل أمراء هذه البلدة حينذاك. فلقد تَوجَّه الإمام عبدالله إلى عُنَيزة محاولاً القيام بهجوم على بُرَيدة مع آل عُليَّان وزامل بن سُلَيم وقبيلة عُتَيبة. لكن الفريق الأكبر من هذه القبيلةَ تأخَّر مجيئه إليه. وكان حسن بن مُهنَّا، أمير

(١) المصدر نفسه، ص٧٤. وكان عدد من قتلهم محمد من أولاد طلال خمسة، أما أصغرهم، وهو نايف، فلم يقتله.

بريدة، قد اتَّصل بالأمير محمد بن رشيد لينجده في ساعته الحرجة. وانتهز هذا الأمير الطموح الفرصة المواتية، فلَبَّى طلب ابن مُهنَّا أملاً في مَدِّ نفوذه الخاص. وأمام تَأخُّر تركي بن حُمَيد وقومه من عُتَيبة في الوصول إلى عُنيزة، ومعرفة الإمام عبدالله بتحرُّك ابن رشيد للوقوف مع أمير بُرَيدة، أقلع ذلك الإمام عن فكرة مهاجمة هذه البلدة. وبذلت جهود كان من نتيجتها أن انسحب كل من عبدالله بن فيصل ومحمد بن رشيد إلى قاعدة حكمه[1]. ومنذ تلك الحادثة أصبح محمد بن رشيد وحسن بن مُهنَّا حليفين، وأخذا يهاجمان المناطق النجدية التابعة للإمام عبدالله رسميًّا والقبائل الموالية له.

ويبدو أن ما حقَّقه محمد بن رشيد من نجاح قد دفع أهل المجمعة للتحالف معه. وفي عام ١٢٩٩هـ جهَّز الإمام عبدالله جيشًا لمحاربة هذه البلدة، ووضع حصارًا عليها. لكنها استنجدت بالأمير محمد بن رشيد، فهَبَّ لنجدتها، وانضم إليه حسن بن مُهنَّا وأتباعه. وحينما اقترب منها ابن رشيد ومن معه اضطر الإمام عبدالله إلى فك الحصار عنها. والعودة إلى الرياض[2].

وبعد عامين من الحادثة السابقة حاول الإمام عبدالله إعادة المجمعة إلى طاعته. فهَبَّ لنجدتها ابن رشيد وحسن بن مُهنَّا بأتباعهما، ودارت بين الفريقين

---

(١) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٨٤ - ٨٥. والذي روى تأخر فريق من عتيبة عن القدوم إلى الإمام في عنيزة محمد العلي العبيد، الذي أشار، أيضًا، إلى أن ابن ربيعان كان يحدو على ظهر جواده قائلاً:

عقلت سَبْلا كم لي من يوم ... ما سايل عن بيرق في الشام

يا شيخنا ما لك علينا لوم ... لومك على برقا وابن بسام

وكان ابن بسام، أحد كبار رجالات عُنَيزة، معارضًا لغزو بُرَيدة، وسَبْلا اسم يطلق على إبل ابن ربيعان، وقصده بالبيرق الذي في الشام عَلَم ابن رشيد.

(٢) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٩١ - ٩٢. تاريخ بعض الحوادث، ص١٩١. وقد دخلها محمد بن رشيد، وعيَّن سليمان بن سامي أميرًا فيها.

معركة في أم العصافير القريبة من تلك البلدة. وقد انتصر ابن رشيد ومن معه انتصارًا عظيمًا ثَبَّت مركزه أكثر من ذي قبل في إقليمي الوَشْم وسُدَير[١].

وفي أعقاب معركة أم العصافير بعث الإمام عبدالله بن فيصل أخاه محمدًا إلى الأمير محمد بن رشيد ليفاوضه. فأكرمه ابن رشيد، وتَخلَّى لعبدالله عن البلدان التي دخلت تحت نفوذه من سُدَير والوَشْم باستثناء المجمعة[٢]. وكانت تلك البادرة عملاً ذكيًّا من ابن رشيد، لأنه كان يدرك أن أمراء بلدان الإقليمين لن يتعاونوا مع الإمام عبدالله على أَيِّ حال. وهو إن أرضى الإمام نظريًّا فإنه لن يخسر شيئًا عمليًّا، لأن الأمراء المذكورين سينضمون إليه عاجلًا أو آجلًا.

على أن أبناء سعود بن فيصل لم يخلدوا إلى الراحة. بل كانوا يقومون بغزوات لعدد من القبائل. وكانت بعض غزواتهم مُوفَّقة[٣].

ولَعلَّ ما أحرزوه من نجاح جزئي، وما رأوه من ضعف عسكري في جانب عَمِّهم عبدالله. كانا من الأمور التي أغرتهم بدخول الرياض، والقبض عليه، والاستيلاء على مقاليد الأمور في هذه المدينة سنة ١٣٠٥هـ[٤].

وكان عمل أبناء سعود بن فيصل ضد عَمِّهم عبدالله فرصة أخرى لمحمد بن رشيد لتوسيع نفوذه. فقد تَوجَّه إلى الرياض مظهرًا أنه أتى إليها ليدافع عن الإمام الشرعي؛ وبخاصة أنه خال لتركي ابن الإمام عبدالله. وسواء كان مجيئه إلى هذه المدينة بناء على طلب من الإمام عبدالله كما

(١) انظر تفصيلهما في عقد الدرر، ص٩٣ - ٩٤. ومن كبار قتلى جيش الإمام عبدالله ابن عمه تركي بن عبدالله ابن تركي، وعبدالعزيز أبو بطين، وعقاب بن حميد من عتيبة.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٣) من ذلك غزو محمد بن سعود، الذي كان فارسًا وشاعرًا، لبُرَيْه من قبيلة مطير سنة ١٣٠٠هـ. المصدر نفسه، ص٩٣.

(٤) المؤرخ البسام، ورقة ١٦٠أ؛ ابن عيسى، عقد الدرر، ص٩٨.

تقول بعض المصادر[١] أو لم يكن فإنه حينما اقترب منها خرج إليه نفر من زعمائها. واتَّفقوا معه على أن يخرج أبناء سعود ويعودوا إلى الخرج، وأن يدخل هو الرياض بدون قتال. وبعد دخوله إليها أخرج الإمام عبدالله من السجن، وعَيَّن سالم بن سبهان أميرًا فيها. ثم عاد إلى حائل ومعه عبدالله ابن فيصل وأخوه عبدالرحمن[٢]. وبذلك أصبحت العاصمة السعودية تحت نفوذ الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد، وأصبح الحكم السعودي منتهيًا تقريبًا.

على أن سالم بن سبهان- ومن ورائه محمد بن رشيد- كان يدرك أن وضعه في الرياض غير آمن ما دام أبناء سعود بن فيصل يقومون بنشاط عسكري في إقليم الخرج. فبدأ يُخطِّط للتخلُّص منهم. ولم تَمرَّ بضعة أشهر على تَولِّيه إمارة الرياض إلا وقد نجح في تنفيذ ما خَطَّطه؛ إذ تَوجَّه إلى الدَّلَم، وفاجأهم؛ فقتل ثلاثة منهم. أما الرابع، وهو عبدالعزيز، فقد كان ذاهبًا إلى حائل. وقد أبقاه الأمير محمد بن رشيد لديه هناك[٣]. وكما كان متوقعًا ضَجَّ أفراد الأسرة السعودية ومُؤيِّدوهم من عمل ابن سبهان، وأظهر محمد بن رشيد غضبه عليه واستياءه مما ارتكبه. فعزله عن إمارة الرياض، وعَيَّن بدلاً منه فَهَّاد بن رَخِيص[٤].

وبعد مقتل أبناء سعود بن فيصل اطمأن الأمير محمد بن رشيد إلى أنه قُضِي على مصدر من أهم مصادر الخطر بالنسبة لنفوذه في نجد، ولم يعد في

---

(١) المؤرخ البسام، ورقة ١٦٠أ؛ ضاري الرشيد، ص١٠٥.

(٢) المؤرخ البسام، ورقة ١٦٠أ؛ ابن هذول، ص٤٧. وقد ذكر هذا الأخير خطأ، أن الحادثة كانت سنة ١٣٠٢هـ.

(٣) ابن عيسى، عقد الدرر، ص٩٩. وقد أشار المؤرخ البسام (ورقة ١٦٠ ب ١٦١أ) إلى تعاون أناس من أهل الخرج مع سالم في التخطيط للقضاء على أبناء سعود. والذين قضى عليهم هم محمد وسعد وعبدالله، والقصة مفصلة لدى البسام أكثر من غيره.

(٤) ضاري الرشيد، ص١٠٩؛ ابن هذلول، ص٤٩.

حاجة إلى مراعاة أَيِّ زعيم من زعمائها. ومن هنا فإن علاقته بحسن بن مُهنَّا، أمير بُرَيدة، بدأت تَتغيَّر نوعًا ما. ولَعلَّ قوة حسن وموقع إمارته بين جبل شَمَّر وبقية الأقاليم النجدية كانا من أهم الأسباب التي دفعت حاكم نجد الجديد إلى البحث عن وسيلة للقضاء عليه أو إضعاف قوته. وكانت الشرارة التي أوقدت الخلاف بين الطرفين محاولة الأمير محمد أخذ الزكاة من بادية يَعدُّها الأمير حسن تابعة له؛ وذلك سنة ١٣٠٦هـ[١] وكانت بداية الخلاف بين هذين الأميرين إيذانًا ببداية التحالف بين الأمير حسن وأمير عُنَيزة، زامل بن سُلَيم[٢]. وهذا ما مَهَّد الطريق لتعود منطقة القصيم مُتَّخذة مرة أخرى أمام آل رشيد.

وفي عام ١٣٠٧هـ أذن الأمير محمد بن رشيد لعبدالله بن فيصل وأخيه عبدالرحمن بالعودة إلى الرياض. وكان عبدالله مريضًا، فتوفي بعد يومين من وصوله إلى هذه المدينة[٣].

ويبدو أن الأمير محمد بن رشيد قد خشي أن يستعيد عبدالرحمن بن فيصل نشاطه بعد وفاة أخيه عبدالله واستقراره في الرياض. ولذلك أعاد سالم بن سبهان ليكون رئيسًا للحامية التي كانت فيها. وبدا لعبدالرحمن أن إعادة سالم إلى هذه المدينة قُصِد بها التخلُّص منه عاجلًا أو آجلًا. وقد دفع حسن بن مهنَّا خروجه عن تحالفه مع الأمير محمد بن رشيد إلى أن يكتب إلى عبدالرحمن بن فيصل يُحرِّضه على التخلُّص من ابن سبهان ويَعِده بمناصرته[٤]. وقد دَبَّر عبدالرحمن حيلة استطاع بها القبض على سالم[٥].

---

(١) المؤرخ البسام، ورقة ٦٠أ؛ ضاري الرشيد، ص١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ورقة ١٦١ب؛ الذكير، ص٩٤.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص٩٩ - ١٠٠. وكانت وفاته في الثامن من ربيع الأول.

(٤) المؤرخ البسام، ورقة ١٦٢أ.

(٥) المصدر نفسه، ورقة ١٦٢أ، و ب؛ ابن عيسى: **عقد الدرر**؛ ص١٠٠؛ الذكير. ص٩٥.

وكما كان متوقعًا لم يقف الأمير محمد بن رشيد موقف المتفرج إزاء القبض على سالم بن سبهان. فَجهَّز جيشًا، وتَوجَّه به من حائل إلى الرياض في مستهل عام ١٣٠٨هـ. واستطاع أن يتفادى أهل القصيم في مسيرته. وحينما وصل إلى أسوار الرياض قام بقطع كثير من نخيلها، وحدثت مناوشات بينه وبين أهلها. ثم خرج وفد منها للتفاوض معه. وكان رئيس الوفد محمد بن فيصل ومعه ابن أخيه عبدالعزيز بن عبدالرحمن- الملك عبدالعزيز- والشيخ عبدالله بن عبداللطيف والشيخ حمد بن فارس. واتَّفق الطرفان على أن يكون عبدالرحمن بن فيصل إمامًا للعارض والخرج. وأن يطلق سراح ابن سبهان مقابل إطلاق الأمير محمد بن رشيد لمن كانوا قد وفدوا إليه من آل سعود سنة ١٣٠٧هـ[١].

ومن الواضح أن الاتِّفاق كان كسبًا للإمام عبدالرحمن بن فيصل نسبيًّا. ولَعلَّ مما دفع الأمير محمد بن رشيد إلى الموافقة عليه أنه لم يقض بَعدُ على القوة الجديدة التي بدأت تنافسه، وهي قوة القصيم.

ولم يمكث الأمير محمد بن رشيد في قاعدة حكمه بعد عودته إليها من الرياض إلا شهرًا تقريبًا. ثم خرج منها بقواته لقتال أهل القصيم. وكان هؤلاء ومن انضم إليهم من البادية قد استعدوا للقائه. وحدثت بين الطرفين مناوشات في القَرْعاء رجحت فيها كفة أهل القصيم ومن معهم. ثم استخرجهم الأمير محمد بن رشيد من مواقعهم إلى أرض المُلَيداء الصالحة لكَرِّ الخيل وفَرِّها. فدارت بينه وبينهم معركة حامية الوطيس انتصر فيها عليهم انتصارًا عظيمًا. وقتل منهم حوالي ألف رجل بينهم أمير عُنَيزة، زامل بن سُلَيم. ثم قبض على الأمير حسن بن مُهنَّا فيما بعد، وأخذه معه سجينًا إلى حائل[٢].

---

(١) ابن عيسى، عقد الدرر، ص١٠٠؛ المؤرخ البسام، ورقم ١٦٣أ؛ ابن هذلول، ص٥٠ - ٥١.

(٢) ابن عيسى، عقد الدرر، ص١٠٠؛ المؤرخ البسام، ورقة ١٦٣أ، و ب، الذكير، ص٩٦ - ٩٧. والذكير من أكثر الذين أعطوا تفصيلات عن تلك المعركة.

وتُعدُّ معركة المُليداء من المعارك الفاصلة؛ إذ جعلت منطقة القصيم، المُهمَّة قوة واقتصادًا وموقعًا جغرافيًّا، خاضعة للأمير محمد بن رشيد مثلها في ذلك مثل الأقاليم النجدية الأخرى.

وكان الإمام عبدالرحمن بن فيصل قد جَهَّز حملة من أتباعه لنجدة أهل القصيم ومن معهم، وبدأ مسيره إلى هناك. لكنه تَأخَّر في سيره[1]. وما إن علم بأخبار هزيمتهم الساحقة حتى عاد إلى الرياض، وتَفرَّق أتباعه. ويبدو أن معركة المليداء قد تركت في نفس عبدالرحمن بن فيصل ما تركته معركة جُودة من يأس في نفس أخيه عبدالله من قبل ذلك بحوالي عشرين عامًا. فلقد أدرك أن موقفه بات حرجًا، وأن محمد بن رشيد سوف يَتوجَّه إليه للقضاء عليه. فغادر الرياض، وذهب إلى قبيلة العُجْمان[2]. وهذا شبيه بما فعله أخوه عبدالله حينما ترك هذه المدينة وذهب إلى قبيلة قحطان. وبعد مغادرة عبدالرحمن للرياض تَولَّى إمارتها محمد بن فيصل نائبًا عن الأمير محمد بن رشيد[3].

على أن ترك الإمام عبدالرحمن بن فيصل للرياض سنة ١٣٠٨هـ لم يكن نهاية المطاف بالنسبة لنشاطه. ذلك أن إبراهيم بن مُهنَّا -أخا أمير بُرَيدة السابق- وصل إليه مع عدد من أهل تلك البلدة سنة ١٣٠٩هـ. فَشجَّع ذلك الإمام وهاجم بأتباعه بلدة الدِّلَم، وانتزعها من رجال محمد ابن رشيد. ثم سار بمن انضم إليه إلى الرياض ودخلها. لكنه لم يمكث طويلاً؛ بل غادرها إلى إقليم المِحْمَل. وما إن علم الأمير محمد بن رشيد بتحرُّكاته حتى جَهَّز جيشًا، وتَوجَّه به

(١) يقول الذكير، ص٩٦؛ إنه أخذ في مسيره من الرياض إلى أن أتاه خبر هزيمة أهل القصيم نحو شهر.

(٢) ابن عيسى، عقد الدرر، ص١٠١؛ المؤرخ البسام ورقة ١٦٣ب؛ ابن هذلول، ص٥٢.

(٣) المؤرخ البسام، ورقة ١٦٤أ، ابن هذلول، ص٥٢.

لمقاتلة عبدالرحمن ابن فيصل ومن معه. والتقى الطرفان عند بلدة حُرَيملاء، فانهزم عبدالرحمن وأتباعه، وعاد للإقامة مع قبيلة العُجْمان[1]. وكانت هذه المعركة آخر معركة قادها أئمة الدولة السعودية الثانية، كما كانت بمثابة الإعلان بنهاية تلك الدولة.

*****

(١) ابن عيسى، عقد الدرر، ص١٠١؛ المؤرخ البسام، ورقة ١٦٤أ، وبينما يتفق ابن عيسى والبسام على أن عبدالرحمن دخل الرياض بدون قتال- كما ذكر أعلاه- يقول ابن هذلول ص٥٢: إن أخاه محمدًا صده عن دخولها. وقد قبض ابن رشيد على إبراهيم بن مُهنَّا بعد معركة حريملاء؛ فقتله.